الفصل الثالث

جوانب عبد الرحمن الكواكبي

١ ـ آثار الرجل

بدأ السيد عبد الرحمن الكواكبي يرسل مقالاته فى الصحف منذ مطلع شبابه كما رأينا ، وعرفنا أنه شرع فى الثانية والعشرين يحرر فى الجريدة الرسمية « فرات » ، باللغتين العربية والتركية ، وكانت عزيزة الجانب عظيمة المكانة ، ثم راح يكتب فى جريدة « الشهباء » « فالاعتدال » . ولا شك فى أنها كانت كلها فى أمور البلد وفى إصلاحه ، أو فى الثقافة والعلم والدين والفقه كما يتراءى لشاب فى مثل سنه . وهذه المقالات لم تُجمع إلى اليوم ، ولم يَقُم لها ناشر يعرض علينا ما كان من قلم الشّاب فى هذه الفترة ، لننهض لها بالتحليل ونقول كلمتنا فى أسلوبها وبيانها ، أو فى غرضها ومضمونها . ذلك لأنها تفرقت فى خزائن الموسرين والعلماء ، ذكر الأستاذ الطباخ أنه رأى عدداً منها فى خزانة الوجيه السيد أسعد العنتابى بحلب . ولا شك فى أن دراستها من خلال الصحف تُعين على تفهم الخطوات الأولى لتفكير هذا الشاب وأسلوبه وكتابته خلال خمس سنين من حياته ، وترشد إلى بدء آثاره الفكرية وصيحاته الإصلاحية ، وما تبدّل منها وما تغيّر على مرّ السنين ، فالكاتب فى تطوّر مستمرّ ما دام فى نزعة ثورية وحماسة فكرية كما كان الكواكبى .

ولكننا فقدنا هذه النصوص الأولى فعجزنا عن بسط الرأى فيها ، ووقفنا دون دراسة التطوّر الأدبى والفكرى فى إنتاج هذا الكاتب ، وبلوغه المرتبة التى وصل إليها . ونحن فى هذا على أسف مرّ حين ننقص صفحات من نموه وتدرّجه لأننا حُرمنا من التقرب نحو الكمال فى بسط أمره كما يبسط الدارسون المتعمقون أثرَ

الكتّاب والمفكرين . والذنب فى ذلك يعود إلى السلطان الغاشم الذى أراد أن يُسكت هذا اللسان وأن يحرم الفكر آثاره وثماره فى الشباب ، فأتلفها وسرقها . وقد قضى الرجل قرابة عشرين عاماً بعد ذلك تقرّب فيها نحو الأربعين من عمره لم نقف له خلالها مقالة ولا رسالة منذ وقف عن النشر فى الصحف الحلبيّة ؛ فقد حسب الناس أنه انصرف إلى العمل والإدارة ، وتعلّق بالمنصب والوظيفة سعياً وراء إصلاح ما بين يديه من أمور وما تحت حكمه من موظفين ، ولعله أرسل فى صحف مصر أو بيروت مقالات مغفلة من توقيعه نشرت آنذاك فى غيبة عن الرقيب والسلطان ، ضاعت ولم تصل إلينا ، ولم يَهدنا دارس إلى موضعها ، فجهلنا مكانها من الفكر والأدب كذلك .

ولكننا عرفنا من قول المؤرخ الأستاذ كامل الغزى ، وكان مرافقاً له وصديقاً حميماً وداوداً ، أن السيد الكواكبي أطلعه مراراً قبل أن يهجر الشام إلى مصر على كتابه « جمعية أم القرى » وأن صديقه الغزى كان يعرف أن الكتاب جدير بالنشر وأنه يلحق بصاحبه الأذى إذا ما نشر ؛ لذلك خاف عليه أن يطبعه فى مصر لما وقف عليه من آرائه وكلامه . ثم يضيف المؤرخ الغزى[1] أن صاحبه الكواكبي ما نزل أرض مصر ١٨٩٩ م حتى نشر مقالات متفرقة لكتابه « طبائع الاستبداد » فقد وصلت إلى العالم العربى بعد بضعة عشر يوماً من وصوله . وذكر الغزى أنه لم يطلعه على هذا الكتاب مطلقاً بخلاف الكتاب السابق .

وهذا يدلّنا على أن الكواكبي ألف الكتابين فى حلب ، وأن عقله كان يتمخض بهما خلال السنوات الأخيرة من مقامه بهذه المدينة قبل براحه إلى مصر ، فلا شكّ فى أنه كتبهما بعد أن بلغ الأربعين من عمره مستعيناً بما كان يقرأ فى الصحافة التركية ، وفى الكتب التركية التى كانت تصل إلى حلب[2]

---

(١) الغزى ، مجلة « الحديث » ١٩٢٩ ، ٦ .

(٢) يقول صاحب « المنار » فى مجلته ١٩٠٢، ٥/٢٧٩ : «فقد كان يقرأ الجرائد التركية والمصرية حتى الممنوعة التى كانت تدخل إلى حلب كغيرها بوسائط خفية » .

خفية فيما كان يصل من الزوّار ، ولعلّه حمله فيما حمل معه من إستانبول حين زارها حوالى سنة ١٨٩٢ للميلاد .

والكتابان « جمعية أم القرى » و « طبائع الاستبداد » بلغا إلينا وحدهما فى جملة آثاره بعد أن عمل فيهما صاحبُهما يد التعديل والتنقيح فنستطيع أن نقول فيهما وأن نبسط أثرهما وخطرهما ، فقد نشرا فى مصر حوالى سنة ١٩٠٠ للميلاد .

(١) طبائع الاستبداد :

ما كاد الكواكبي يصل إلى مصر حتى وقع فى نفوس إخوانه موقعاً حسناً فالتفّوا حوله ، وتحلّقوا يستمعون إليه يقصّ عليهم من أخبار الشام وعيش الناس فيها من جور واستبداد وضيق . فارتبط بهم بروابط الود والصداقة حتى إذا عرّفه صديقه الشيخ رشيد رضا صاحب « المنار » بالأستاذ الشيخ على يوسف تمكنت بين الرجلين أواصر الحبّ والتقدير ، واتفقا من غير شك على خطة فى النشر والتحبير . وفى ذات يوم صدرت « المؤيد » تحمل إلى قرائها فصولاً غريبة فى اللهجة والأسلوب والموضوع ، لم يسبق لصحيفة عربية أن تطرقت إلى مثلها ، فقد كانت مشبعة بالصراحة والحرية والجرأة ، تحوم حول الاستبداد . فلفت الأنظار وتساءل القراء عن صاحب هذه المقالات تصدر فى جريدة « المؤيد » ، على رغم اتصالها الشديد بالخديو عباس الثانى وبالآستانة ، ويقولون تُرى من يكون صاحب طبائع الاستبداد ؟ » واعتقد الجمهور لأول وهلة أنه من نتاج قلم وتفكير فقيد الشرق الشيخ محمد عبده لولا الجفاء الذى كان مستحكماً بين صاحب المؤيد وبينه »[1] . فلما عرفوا أن صاحبه عبد الرحمن الكواكبي وضعوه فى الدرجة الأولى من رجال الفكر والقلم وأنزلوه منزلته وأعلوا قدره .

فما هى أبحاث الكتاب ، وما خطر فصوله ؟

لم نستطع أن نحصل على مجموعة جريدة « المؤيد » لذلك العهد فنحن

(١) إبراهيم النجار ، « الحديث » ١٩٤٠ ، ٦/١٤ .

لا نتمكن من إبداء الرأى فى هذه المقالات وطريقة عرضها فى الجريدة لأول مرة ولن نقول فى أسلوبها هناك وتنقيحها بعد ذلك أو اختلافها وإضافاتها عما نُشر منها بعد ذلك فى هذا الكتاب . فنحن قد وقعنا على طبعة منها متأخرة[1] عملتْ فيها يد التحريف والتصحيف ، فوقعت فيها أخطاء لم ترد فى الأصل على قلم كاتبها ، لأنها صريحة فى الخطأ بينه فى ذلك ، ولا شك فى أن الطبعة الأولى لها قد نفدت أو هى فى حكم النادرة ، فلا سبيل لنا إلى تحليل الكتاب إلا من هذه الطبعة .

جاء عنوان الكتاب : « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، وهى كلمات حقّ وصيحة فى واد ، إن ذهبت اليوم مع الريح لقد تذهب غداً بالأوتاد ، محررها هو الرحالة ك » . وقد بسط الرجل فى فاتحتها قوله : « وبعدُ ، فأقول وأنا المضطر للاكتتام حسب الزمان ، الراجى اكتفاء المطالعين الكرام بالقول عمن قال : إننى فى سنة ثمانى عشرة وثلثمائة وألف[2] ، وجدتُ زائراً فى مصر على عهد عزيزها ومعزّها حضرة سمى عمّ النبىّ العباس الثانى الناشر لواء الحرية على أكناف ملكه ، فنشرتُ فى بعض الصحف الغراء أبحاثاً علمية سياسية فى طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، منها ما درسته ومنها ما اقتبسته غير قاصد بها ظالماً بعينه ولا حكومة مخصصة إنما أردت بذلك تنبيه الغافلين لمَوْرِدِ الداء الدفين عسى يعرف الشرقيون أنهم هم المتسببون لما هم فيه فلا يعتبون على الأغيار ولا على الأقدار ، وعسى الذين فيهم رمق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات . ثمّ كلفنى بعض الأعزاء لجمع شمل تلك الأبحاث تعميماً للفائدة ، فأضفتُ إليها بعض زيادات وحولتها إلى هيئة هذا الكتاب » .

وهكذا يعترف المؤلف أنه زاد فى الكتاب عما نشره فى الجريدة ولعلّه غيّر

---

(١) طبعة « المكتبة التجارية » لصاحبها مصطفى محمد ، ١٣٥٠ هـ — ١٩٣١م . فى ١٣٦ صفحة .

(٢) أى سنة ١٩٠٠ للميلاد .

وبدّل متأثراً بما ورد إليه من نقد أو ملاحظة أو ما تقتضيه الظروف . واعترف كذلك أنه أخذها عن مصادر درسها وأخرى اقتبس منها . أما المصادر فقد بسط فى المقدمة أمرها فقال إنه لا يعرف للأقدمين كتباً مخصوصة فى السياسة لغير الرومانيين الجمهوريين . وقال : إن لبعضهم مؤلفات سياسية أخلاقية مثل كليلة ودمنة ورسائل غريغوريوس اليونانى ، ومحررات سياسية دينية كنهج البلاغة وكتاب الخراج . وفى القرون المتوسطة لا تؤثر مؤلفات فى هذا الفن لغير علماء الإسلام ، فهم ألفوا فيه ممزوجاً بالأخلاق كالرازى ، والطوسى ، والغزالى ، والعلائى ، وهى طريقة الفرس ، وممزوجاً بالأدب كالمعرى والمتنبى وهى طريقة العرب ، وممزوجاً بالتاريخ كابن خلدون وابن بطوطة وهى طريقة المغاربة » . ثم ذكر أن المتأخرين من أهل أوربة توسعوا فى هذا العلم وألفوا فيه كثيراً ، وأن من الترك كثيرين ألفوا فى أكثر مباحثه تآليف مستقلة وممزوجة مثل أحمد جودت باشا ، وكمال بك ، وسليمان باشا ، وحسن فهمى باشا . وأمّا العرب فقليلون ومُقلّون والذين يستحقون الذكر — فيما يرى منهم — رفاعة بك وخير الدين باشا التونسى ، وأحمد فارس ، وسليم البستانى ، والمبعوث المدنى[1] .

ولا شك فى أن هذه الكتب هى جملة ما رجع إليه الكواكبى حين تأليفه ذكر منها ما ذكر ، ولكنه لم يرشدنا إلى كلّ الكتب الغربية التى عكف عليها واقتبس منها ، حتى تاه معاصروه فنسبوا بعض الآراء إلى جان جاك روسو ، وبعضهم نسبها إلى مؤلف إيطالى مجهول . وقد ذكر فى كتابه « طبائع الاستبداد » جملة نسبها إلى « ألفيارى[2] » وترجمها بنصّها ، مما دفع إلى الاعتقاد بأن الكتاب مأخوذ من هذا الكتاب الغربى . وذكر الأستاذ أحمد أمين[3] فى دراسته للكواكبى أنه اقتبس كثيراً من أقوال ألفيرى « Victor Alfieri » وهو كاتب

---

(١) انظر « طبائع الاستبداد » ، ص ٤ .
(٢) انظر الكتاب نفسه ، ص ١٣١ .
(٣) « زعماء الإصلاح » ص ٢٥٨ .

إيطالى وشاعر مشهور عاش من سنة (١٧٤٩ — ١٨٠٣) ، ونشأ فى بيت نبيل ، وساح فى أوربة نحو سبع سنوات وألف كتباً كثيرة عن مارى ستيوارت وميروب ، ودرس كتب فولتير وروسو ومنتسكيو ، وتشبّع بآرائهم الحرة ، وتعشّق الحرية وكره الاستعباد أشد الكره . وتساءل الأستاذ أحمد أمين من أين وصلت إليه هذه الأقوال ؟ وذلك لأنه يعلم أن الكواكبي لم يتقن لغة أوربية . ونحن نرى جواباً عن ذلك أن أحرار الأتراك كانوا يترجمون وهم فى عواصم الغرب كثيراً من هذه الكتب ، ولعل نسخة منها بلغت إلى الكواكبي خفية فى حلب . بل لعلّ الإيطاليين وكانوا على صلة بالسيد الكواكبي ، فى حلب ، وفى اليمن ، وفى غيرها — مما رأيناه فى ترجمته — قد وضعوا الكتاب بين يديه ، وفيهم قناصل فخريون يتقنون العربية فترجموها له سعياً فى خدمة الكواكبى أو إثارةً للشعوب العربية آنذاك .

وكيفما كان الأمر ، فالكتاب ليس اقتباساً من الإيطالية كله وليس جمعاً من مصادر عربية وحدها [1] ، وإنما هو مجموعة مقالات وفصول أخذت من كلّ مصدر بنصيب ؛ من القرآن ، والحديث ، وأمثال العرب ، والكتب التاريخية العربية والمترجمة ، أضاف إليها كاتبها ما خبر من حال الشعوب الإسلامية ، فأعمل فيها الفكر وأشرك فيها العقل والعاطفة فجاءت فى أساليب مختلفة ترتفع طوراً إلى ذروة البيان وتنخفض طوراً إلى درجة المقالة العادية السطحية ؛ ذلك لأن الرجل أول من كتب كتاباً بالعربية فى هذا الشكل ، وأول من حبّر موضوعاً متصل الحلقات بهذا الأسلوب من الإنشاء ، وهجر السجع ، وأنكر التمثل بالشعر فى كلّ صفحة ، أو تضمين الآيات بكل مناسبة ، فكان باكورة فى الإنتاج . ولذلك يحمد كل الحمد إذا قورن بعصره وزمانه وثقافة أهله وأقرانه ، خاصة إذا ذكرنا ما كان للإرهاب والتهديد والضغط والإكراه من أثر فى الكتابة

---

(١) يقول رشيد رضا فى « المنار » ٢٧٩/١٩٠٢ : « إن ينبوع علم هذا الرجل صدره وإنه كان يزداد فى كل يوم فيضاناً وتفجيراً » .

آنذاك فى المواضيع العامة التى تمس الحياة الاجتماعية أو السياسية ، فكيف إذا كان الكتاب يمس الاستبداد من قريب ويدور حول الاستعباد ، ويصف الدواء لمناهضته له والطرق لتحطيمه ، وتوحيد قوى الشعب فى سبيل ذلك .

وهو فى مقدمة وثمانية فصول ، بسط فى المقدمة مصادره ، وعرّف الاستبداد كتوطئة لبحوثه ، ثم راح يكتب فى الفصول على التوالى .

١ — تكلم فى الفصل الأول عن الاستبداد والدين وردّ قول الفرنجة الذين زعموا أن الاستبداد السياسى متولّد من الاستبداد الدينى ، فأثبت أن الكتب السماوية تدعو إلى خشية قوة عظيمة هائلة ، وأن هذه الدعوة جرّت عوام البشر إلى التباس الإله المعبود والجبار واختلاطهما فى مضايق أذهانهم ، من حيث استحقاق التعظيم والرفعة ، فضلّ الناس فى هذا الزعم ، ولكن العلماء نبّهوا بعد ذلك إلى هذا الضلال . فالإسلام هدم الشرك وأحكم قواعد الحرية السياسية ، وأعطى الناس حكومة الخلفاء الراشدين ومن تشبّه بهم . والقرآن نفسه مشحون بتعاليم تقتل الاستبداد وفيه الآيات البينات على لسان بلقيس ملكة سبأ ، أو قصة موسى أو خطاب فرعون ، وكلها تدعو إلى مجالس الشورى « وشاورهم فى الأمر » « وأمرهم شورى بينهم » وقال : إنه لا يوجد فى الإسلام نفوذ دينى فى غير مسائل إقامة الدين . ولكن المسلمين أخذوا مما ليس فى دينهم فاقتبسوا التعظيم وطاعة الكبراء على العمياء ، وحاكوا مظاهر القديسين وعجائبهم والدعاة المبشرين وصبرهم ، وقلّدوا رجال الكهنوت فى مراتبهم وتميزهم فى ألبستهم وشعورهم . ويرى الكواكبى أن هذه المقتبسات هى أمهات للاستبداد وسلاسل للاستعباد ، وهى التى أفسدت الأديان وأشقت الإنسان ، وأبعدتْه عن جوهر القرآن وعظمة ما فيه من معجزة وإعجاز .

٢ — وتكلم فى الفصل الثانى عن الاستبداد والعلم فرأى أن سبب الاستعباد هو الجهل فى الرعية . والمستبد لا يخشى علوم اللغة أو علوم الدين ، ولكنه ترتعد فرائصه من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق

الأمم ، فهو يخشى العلوم التى توسع العقول وتعرّف الإنسان ما هو الإنسان وما هى حقوقه . ويكره المستبد أن يرى وجه عالم ذكى ، فإذا اضطر إليه اختار المتصاغر المتملّق ، فبين الاستبداد والعلم حرب دائمة ، يسعى العلم فى نشر الحرية ويسعى المستبد فى إطفائها ، وكلاهما يتجاذبان العوامّ إلى طرفهما . فالعوام هم قوت المستبد وقوته ، إذا أفلتوا منه بالعلم خسر كلّ شىء ، ذلك لأنهم حين يتعلمون يفهمون حقيقة الحرية والعزة والشرف ، فلا سبيل إلى العبودية والاستبداد وما انتشر نور العلم إلا تكسرت قيود الأسر .

٣ — وفى الفصل الثالث يتحدث عن الاستبداد والمجد ويريد بالمجد إحراز المرء مقام حب واحترام فى القلوب ، ولكن الاستبداد يغالب المجد ويقيم مكانه التمجد . والمجد أمر طبيعى تتوق إليه النفوس وتحنّ إليه أعناق النبلاء ، فى السعى إلى الرفعة والنبل . ولكن التمجد هو القرب من المستبد بوسام أو تشرف بلقب أو منصب ؛ والمتمجّدون أعداء للعدل أنصار للجور يترامون على أرجل المستبد ويتخذهم لجاماً لتذليل الرعية ، وهم أعوانه يشاركونه فى استبداده لقاء انتفاعهم منه ، فهم العصابة التى تُعينه على ظلم الرعية ، منهم الوزراء والموظفون والقواد والعمال ، فهم يشاركونه فى امتصاص دم الأمة بأخذهم العطايا الكبيرة والرواتب الباهظة . فالمستبد فرد عاجز لا قوة له ولا حول إلا بهؤلاء المتمجدين ، فلا يخلص الأمة الأسيرة إلا العقلاء الأبرار الذين يشترون السعادة بشقائهم والحياة بموتهم .

٤ — وفى الفصل الرابع يتكلم عن الاستبداد والمال فينظر إلى الحيوان أولاً ليقرر أنه يلتمس رزقه من مورد طبيعى وأن الإنسان يلتمسه عند أخيه ، فهو يأكل لحم الإنسان منذ دهر طويل حتى حرّم الحكماء والأنبياء ذلك عليه وعوضوا عنه بالقربان من الحيوان ، ولكن الاستبداد أحيا سنّة أكل البشر

فجعل الأقوام طعمة للظالمين المستبدين المستعمرين . وتمتّع رجال السياسة والأديان بنصف ما يكسب البشر ينفقونه فى الإسراف والرفاهية ، فيزيّنون الدنيا بملايين المصابيح لمرورهم مثلاً ولا يفكرون بالفقراء الذين يبيتون فى الظلام ، ويعيش التجار الشرِهون والمحتكرون فى إسراف مما يعيش به سائر الشعب والبرية ، فتتفاوت الأقوات بسبب الاستبداد السياسى ويعبد الإنسان المال والجمال فيجنح إلى الادخار ويطبع على التموّل ويحرم الآخرين الرزق . ولهذا قامت جمعيات تسعى للتساوى والتقارب بين أفراد البشر لتمحو عار الاستبداد المالى وتقضى على الاحتكار ومزاحمة الضعفاء . وقام لهم المستبدّون الظالمون فسنّوا القوانين لحماية احتكارهم ، وكان من ذلك اختلال فى الملكية فأصبح أناسٌ يملكون الأراضى الواسعة وعاشت طبقة لا تجد أرضاً تنام عليها ، فإذا لم تستدرك حكومات الشرق هذا الخلل بقانون تسنّه زاد الفقر وطغى المحتكرون وفسدت الأخلاق وعمّ الاستعمار ، وبغى الغنىّ على الفقير ، واشترى ضميره ، وسخره لأمره ، وجعله مستعبداً له ، وسلبه أعزّ ما لديه . وهذا الاستبداد مجلبةٌ للبلاء يخيف الفقراء كما يخاف البغاث من العقاب فلا يفكرون ولا يجرءون على طلب الحرية . لذلك يجب على الحكومات أن لا تسمح بتجاوز مقدار من الكسب والملكية تستبد بهما طبقة وتفتقر إليهما طبقة ، فينتشر السؤال وتذل النفوس ، ويشقى الناس بسيطرة الأغنياء على كلّ المقدسات .

٥ — وفى الفصل الخامس يتحدث عن الاستبداد والأخلاق : فيرى أن الاستبداد يفسد الأخلاق ويسوق إلى الحقد ويضعف حبّ الوطن لأن الفرد يجد أنه غير آمن على الاستقرار يودّ لو انتقل من وطنه ، ويضعف حبّ الأسرة لأنه لا يطمئن على دوام علاقته معها . وأسير الاستبداد لا يملك شيئاً يحرص على حفظه لأنه يملك مالاً معرضاً للسلب وشرفاً معرضاً للإهانة ، فلا يذوق لذة نعيم غير نعيم الملذات البهيمية فيحرص عليها . وهنا تمرض العقول ويختل الشعور ويرى الناس فى المستبد مظاهر الأبّهة فتبهر أبصارهم ويتحدّثون عن

تضخيمه وتعظيمه ، ويذلون له ، وينصاعون كما ينصاع الغنم بين أيدى الجزار فتجرى إلى حتفها ، أو كمثل الهوام تترامى على النار . وكم تلاعب القياصرة والملوك فى قلب الحقائق فعبثوا بالأديان وسخروها لخدمتهم ، وخُدع بهم المؤرخون فسمّوهم فاتحين وغالبين وعظماء فجاروهم فى استبدادهم . والحقّ أن المستبدين يعلّمون الناس الانقياد عن خوف وجبن ، والتوقير عن كراهية وبغض ، ويقلّلون الفسق والفجور عن فقر وعجز فيخفونها عن الأعين فحسب . وفى ظل الاستبداد يألف الناس النفاق والرياء فيفقدون الثقة فى أنفسهم وفى غيرهم ، ويجدون فى الأجنبى ميزةً لا يجدونها عند أبناء جلدتهم ، فينظرون إليه فى ثقة واعتماد ويأمنون له ، ولذلك عمل الأنبياء على إنقاذ الأمم من شقائها بفكّ العقول من تعظيم غير الله والإذعان لسواه . وتبعهم فى ذلك الحكماء السياسيون الأقدمون فحرّروا الضمائر ، ولم يبالوا بغوغاء الأغبياء . والشرقيون بعيدون فى حاضرهم عن الجد والعزم يرتاحون للّهو والهزل ، يسكّنون بهما آلام النفس ، ويُخلدون إلى الخمول والتسفّل طلباً لراحة الفكر ، يتواكلون ويَدَعون ويطالبون بالوظائف وما داموا كذلك فلينظروا ما حاق بالأمم المنقرضة ولينظروا مصيراً كمصيرهم .

٦ — وفى الفصل السادس يتكلم عن الاستبداد والتربية فيقول : إن الاستبداد يؤثر فى الأجسام فيسقمها وفى الأخلاق فيفسدها ، فهو يهدم ما تبنى التربية ، ولكنه يُبقى على التدين الذى يُقنع بعبارات مجردة لا تَنْهى عن فحشاء ولامنكر ، وذلك لفقد الإخلاص فيها ، فقد ألفت النفوس أن تلجأ إلى الكذب والرياء والخداع والنفاق فى ظلّ الاستبداد فلا تأنف بعد ذلك من أن تستعمل هذه الطبائع مع الربّ والأب والأم والقوم والجنس حتى مع النفس . والحكومات العادلة تُعنى بالنسل فى زواجه وأولاده ومعايشه وآدابه ، فيعيش النسل سعيداً بعمله ينعم بالرزق ، ولكن الحكومات المستبدة تبعث الحيرة وتُميت الآمال ، لذلك يتعزّى أسرى الاستبداد بالدين ، يعلّلون النفس بسعادة أخروية ويسلونها بمثبطات تهوّن من حياتهم الذليلة ، فلا يتلذّذون مما يملكون ، ويهبون أولادهم عبيداً للسلطة

لأنهم يائسون من إصلاحهم فى ظل الأسر ، لا يجدون صحة ولا علماً ولا غذاء ، وإنما يألفون الشقاء والتضييق والفقر ويُرضعونه أبناءهم بعدهم ، فتنحط الأمة إلى الأبد .

٧ — وفى الفصل السابع يتحدث عن الاستبداد والترقى فيقول : إن الترقى يكون فى الصحة والقوة والعلم والمال ، والإنسان يترقى ما لم يعترضه مانع يسلب إرادته كالعجز أو الاستبداد . فالاستبداد يسير بالإنسان إلى الانحطاط والتأخر والفناء ، فيشعر على الزمان بأنه كالحيوان لا يهمه غير حفظ حياته الحيوانية ، فعلى قادة الأمم أن يسعوا إلى رفع الضغط عن العقول لتنطلق فى سبيلها نحو النموّ وتمزّق حجب الأوهام ، وأن يُقنعوا الناس بأنهم خُلقوا لغير الذلة والمسكنة ، وأن يحركوا قلوبهم بخطابات مثيرة ، تدفعهم إلى اليقظة والنور وترفع عنهم ستر التأخر ، فالأمم قد سبقتهم ألوف المراحل ، وأن التقلب على فراش البأس ووسادة اليأس مضرّ بالهمم ، وأن ينبهوهم إلى أنهم يملكون رؤساء كغيرهم وقلوباً كسواهم من الأمم فيجب أن يثقوا بأنفسهم وأن لا يُوكلوا غيرهم عليهم . فالمستمتعون ينسلونَ من كلّ جانب ليسلبوا الأموال ويُزاحموا المواطنين على أراضيهم وليتحيّلوا على تذليلهم فإذا تيقظت الأمة سدّت الأبواب فى وجه الطامعين . ويرسم الكواكبى خطباً مثالية فى إثارة الشعور وإيقاظ الهمم وهداية أبناء الشعب وإبعادهم عن العبودية والذلّ والسجود أمام المنعمين . ويلتفت إلى المسلمين بأحاديث تُنكر الظلم ، ثم إلى العرب كافّة من غير المسلمين يحثهم على الاستنارة بالعلم والاتحاد الوطنى والوفاق الجنسى دون المذهبى لعلهم يترقون فيصطدم الأجنبى بجدار ترقّيهم وعلمهم ، ولا يطمع فى الاستيلاء عليهم . ثم يقول : إن الاستعمار الغربى مهما مكث فى الشرق لا يخرج عن كونه تاجراً ليستمتع بوسائل الشرق وغناه لا يخدم العلم فيه . وها هم أولاء الهولانديون فى الهند وجزائرها ، والفرنسيّون فى الجزائر لم يسمحوا لأهلها بجريدة تقرأ ؛ والإنكليزى يفضل قديدَ بلاده وسمكَ بحاره على طرى لحمنا وسمكنا . ويتوجه الكواكبى إلى الغرب فيحذّره من ظلمه

للشرق ويذكّره بفضل الشرق عليه ، ويكيلُ اللومَ للشرق على تواضعه وتصاغره وتملّقه . فقد كفاه ما لقى فى سبيل ذلك كلّه . فالاستبداد كما يقول يبلغُ فى الانحطاط بالأمة إلى الموت . والحكومات العادلة يجب أن تمهّد العيش للإنسان كما وعدت الأديانُ لأهل السعادة فى الجنان ، لكى يعيش الفرد أميناً على سلامته فى جسمه وحياته ، أميناً على ملذاته الفكرية والجسمية ، أميناً على حريته ونفوذه وماله وملكه ، وشرفه ، فيعتبر الإنسان نفسه عضواً حقيقيّاً من جسم الأمة ، فيفتدى أمته بماله وروحه ، وينتظم أمرُ الأفراد فى الأمة ويكونون سدّاً فى وجه الاستبداد حين يعتقدون أن لا قوة فوق الشرع ولا نفوذ لغير الشرع ، فالشرع حبل الله المتين ، وحينئذ لا يعتدى بعض على بعض ولا يتعدّى أحد على حدود غيره ، تسهر الأمة على مراقبة سير حكومتها لا تغفل ولا تتسامح كما أن الله لا يغفل عما يفعل الظالمون .

٨ — وفى الفصل الثامن ، يتحدث عن الاستبداد والتخلص منه فيستقرئ التاريخ ليستنتج منه أن الإنسان عاش دهراً طويلاً يسوسه الأقوياء والأذكياء على أنظمة مختلفة فى قواعد رائدها العدالة الوجدانية أو النظام التقليدى . وأكثرُ الناس لم يهتد إلى طريق مثالىّ فى الحكم ، لأن مشكلة الحكم أقدم مشاكل البشر ، والغربيون جالوا فى هذا السبيل وقرّروا مسائل كثيرة ما تزال فى أخذ ورد عند التطبيق . ويطرح على بساط البحث بعضاً من المباحث يدعو إلى تدقيقها . فيتساءل ما هى الأمة والحكومة والحقوق العمومية والتساوى فيها والحقوق الشخصية ، وما هو الأصلح للحكم : أهو المطلق أم المقيّد ؟ وما هى وظائف الحكومة وحقوقها وطاعة الأمّة لها ، وتوزيع الضرائب ، والإعداد للدفاع ، ومراقبة الحكومة ، ورعاية الأمن ، وحفظ السلطة فى القانون ، وتأمين العدالة القضائية وحفظ الدين والآداب . وكيف توضع القوانين وتوزع الوظائف والأعمال ، أهى برأى الحاكم أم برأى الأمة . وكيف يفرّق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم . وكيف يعمّم التعليم ويتوسع فى الزراعة والصناعة

والتجارة . وكيف يكون رفع الاستبداد ونيل الحرية فيجد أنه على خمسة وعشرين أسلوباً[١] ، يقول إنها تحتاج إلى تدقيق عميق وتفصيل طويل ، وهى كلها تتعلق بالحقوق الإدارية لا يقف عندها وإنما يخص كلامه برفع الاستبداد ، فيرى أن الأمة التى لا يشعر أفرادها بآلام الاستبداد لا تستحقّ الحرية. والاستبداد لا يقاوم بالشدة . وينقل قول ألفيارى : « لا يفرحنّ المستبد بعظيم قوته ومزيد احتياطه فكم من جبار عنيد جندله مظلوم صغير » . فهو يرى أن الضعيف قد يخذل المستبد الكبير ولا يكون ذلك إلا بالتعليم وإقناع الرأى العام ، والثبات. ولإزالة المستبد طرق يشير إليها المؤلف ويستعرض الحالات الصعبة فى إزالته ، ويعتقد أن رئيس وزارة المستبد ورئيس قواده أو رئيس الدّين عنده هم أقدر الناس على الإيقاع به ، وهو يداريهم تحذّراً ، وإذا أراد إسقاط أحدهم يوقعه بغتة . ثم يشير إلى ترتيب المقاومة والاستعداد الفكرى وتعميمه وذلك بإشعار الأمة آلام الاستبداد ، ودفعها إلى أن تحكم نفسها بنفسها وبذلك يتمّ السير الطبيعى لسنّة الكون .

* * *

وهنا ينتهى الكتاب ، وقد عالج فيه كاتبه أنواع الاستبداد وطرقه وسبل التخلّص منه ، وبسط أسباب وجوده فى الأمة ، فنقل نظريات الغربيين والمشارقة فى تعريف الحرّية واعتمد على كتاب الله وسُنّة رسوله ، وما عرفه الرجل خلال دراساته . وقد أخذ عليه أنه نظرىّ فحسب لم يدعم كتابه بمشاهداته وهى كثيرة ، فلم يبسط فيه حال بلاده الشّام ، ولم يضرب الأمثلة صريحة عن العثمانيين وتسلّطهم على العالم العربى ولم يتطرّق إلى الأشخاص . ولعل ذلك لغاية واحدة هى سيرورة الأفكار فى الناس من غير أن يصطدم بالمخدوعين والمحبّين للدولة

---

(١) يقول رشيد رضا فى « المنار » ١٠٦/٢٩٠١ : « وهذا الفصل الأخير وما فيه لم ينشر فى المؤيد » ثم يضيف : « ونرجو من مؤلفه أن يكتب لنا كتاباً آخر فى المباحث التى وضعها تذكرة للكتاب فلا يرفيها حقها غيره » .

العلية العثمانية آنذاك ، وكان بعضهم يرى فى الدولة العثمانية حامية لشعار الإسلام، وموضعاً لحماية الدّين والجامعة المحمدية . وقد اضطر صاحبُه إلى حذف فصل وإضافة فصل وتعديل الكتاب قبل طبعه ، ومع ذلك لم يجد طابعاً ينشره جملةً ، حتى جاء رجل سورى الأصل مصرى الوطن[1] فاعتنى بنشره ، وجعله موقّعاً برمز الرحالة « ك » ، وذلك فى أرض الكنانة لأواخر القرن التاسع عشر على ما كانت عليه النهضة والحرية آنذاك بالنسبة إلى بلاد الشام . وقد علمنا مع ذلك أن السلطان أرسل مبعوثيه لجمع نسخه وإتلافها لئلا يشيع هذا الفكر الخطر على استبداده ، وقد حرّم دخوله إلى الأراضى التى كانت تحت إشراف زبانيته ، فقد كان الكتاب على جرأة نادرة حين يُطالب بالحرية وقلع الاستعباد ، وخلق مدينة فاضلة وجمهورية مثالية كجمهورية أفلاطون ومدينة الفارابى ، رسم لها الأصول والطرق ، وبسط طريقة العيش بين الأفراد وصلتهم بالحكام ، فى ديمقراطية لم تحققها إلى اليوم جمهورية فى العالم على الشكل الذى أراده وتخيّله . لذلك كان فى نظر الكثيرين — كما قلنا — خياليّاً بعيداً عن الواقع ، يستمدّ آراءه من الإنسانية الكاملة والأخلاق الفاضلة والأحكام العادلة ، فكأنه يتحدّث عن أحلام وأمان لا يمكن أن تتحقق لعصره وزمانه ، ولكنه فيلسوف يرسم الطريق لقومه ويعبد السبيل لأمته ، فهو مشعل ينير ومنارة تهدى وعقلٌ منظم ، قد سكب آراءه المشرقة وأفكاره العميقة فى هذا الكتاب الصغير ، الذى يصلح دستوراً ونظاماً وقانوناً يسير على هديها كلّ من دخل ميادين الاجتماع والسياسة والفكر ، فهو فى كتابه رسم السياسة لأمته بصدق وإخلاص ، يفوق ما رسم الوزير المغربى[2] فى الشرق ، وما كتب ماكيافيلى فى الغرب ، بل إنه خلاصة

---

(١) فى مجلة « الحديث » ١٩٣٧/٦٥٣ لمحمد لطفى جمعة : « ولم يجد هذا الكتاب أحداً يعتنى بنشره سوى رجل فاضل سورى الأصل مصرى الوطن اسمه إبراهيم فارس صاحب مكتبة الشرق »

(٢) ألف الوزير المغربى أبو القاسم الحسين بن على المتوفى سنة ٤١٨ هـ ، كتاباً فى السياسة نشرناه بدمشق ١٩٤٨ ، وقد نافس فيه ابن سينا والفارابى .

لما قيل من آراء عند الغربيين قريب الشبه بكتب مونتسكيو وروسو وخاصة فى « العقد الاجتماعى » [١] (كونتراسوسيال : Contrat Social) .

ولعله فى كتابه تخيّل الحكم الصالح لعهد عمر بن الخطاب وجرى على مثال بعض الخلفاء الراشدين فى سنن الإدارة والعدالة فجعل الشّعب سيّداً والحكام أجَراء قد استعملهم الناس لخير حياتهم وسعادة عيشهم ليس غير . ولا شكّ فى أنه فَهِم هذه البحوث التى قرأها على الغرب وهضمها واستساغها ، وسبكها بقالبه وأسلوبه ، وهى بحوث حقوقية علمية اجتماعية يكتبها رجل لم يدرس الحقوق فى جامعة ولم يتعلم الاجتماع فى مدرسة ، ولكنه على كلّ حال استطاع أن يقدم ذلك لقرائه كأستاذ وعالم ومفكر بعربية سليمة وكتاب متسق الفصول حسن التبويب ، لم يؤلف مثله بعدَ ابن خلدون فى معالجة مشاكل الشرق فى ضوء ما يصنع الغرب وما يكتبه من أمثال مونتسكيو وروسو وألفيارى ، فى محيط مظلم حرّمت عليه أمثال هذه البحوث وقراءاتها وكتاباتها والاستماع إليها لأنها تمسّ نظام الحكم وتُصيب من الحكام العثمانيين مقتلاً ، فتنبه النيام وتُوقظ الغافلين ، وتفعل فى النفوس الشرقية فعل النار فى الهشيم !

وقد نشر ابنه الدكتور محمد أسعد الكواكبى فصولاً [٢] لم تقع فى طبعة الكتاب ذكَر أنها من إضافات والده ، وأنها كانت على أن تنشر فى طبعة منقحة ، ولكن المنية عاجلته دون تحقيق هذه الأمنية . وما تزال هذه الفصول مخطوطة لم تُطبع كلّها ، وهى لا شك تُضيف إلى ما نعرف عن الكواكبى وآرائه معلومات جديدة يحسن أن تجمع وأن تنشر نشراً علمياً مع بسط صور خطّ الرجلَ ومسودّته وتنقيحاته ، كما يفعل الغربيون حين يعرضون لدراسة عالم من علمائهم ، وعسى أن يقوم أحد العلماء بهذا فيسدّ ثغرة ما تزال مثيرة ، وعند ذاك يستطيع الباحثون أن يوفوا الرجل حقه فى تفكيره وبيانه وطريقة تأليفه ودراسة آثاره دراسة موفقة كاملة .

* * *

---

(١) نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية المغفور له عادل زعيتر .

(٢) مجلة « الحديث » ، ١٩٥٢ ، ٥٥٥ — ٥٥٨ .

(ب) « أم القرى [١] » : « أى ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد فى مكة المكرمة سنة ١٣١٦ هـ » .

يقول الأستاذ رشيد رضا [٢] : « ولما هاجر إلى مصر كان أول أثر له فيها طبع سجل جمعية أم القرى ، وكان يقول إن لهذه الجمعية أصلاً وإنه هو توسّع فى السجل ،ونقحه ست مرات آخرها عند طبعه منذ سنتين ونيّف أى عقيب قدومه إلى مصر . وقد قال لنا مرة إن الإنسان يتجرّأ أن يقول ويكتب فى بلاد الحرية ما لا يتجرأ عليه فى بلاد الاستبداد ، بل إن بلاد الحرية تولّد فى الذهن من الأفكار والآراء ما لا يتولد فى غيرها » .

وهكذا ينبئنا صديقه أنه ألّف الكتاب منذ زمن ونقحه وبدّل فيه وزاد عليه ، متأثراً بجوّ الحرّية التى لقيها فى مصر . ويخبرنا صديقه الشيخ كامل الغزى أنه أطلعه على الكتاب قبل رحيله إلى مصر [٣] . ويقول عن كتاب « جمعية أم القرى » : « فقد أطلعنا عليه مراراً » .

فالكتاب ألف فى حلب وبيضه ابنه الدكتور محمد أسعد ، ولكنه نقّحه فى مصر مراراً ، ونشره فيها سنة ١٩٠٠ ، ثمّ نشره الأستاذ رشيد رضا فى «المنار» سنة ١٩٠٢ ، وقال [٤] : « ولكن فى القسم السياسى كلاماً لبعض أعضاء الجمعية فى الدولة العلية — أيّدها الله تعالى — نَحذفه عند الوصول إليه ، لأنه لا يؤلم أكثر الناس ، ولا ينبغى أن يعرفه إلا الخواص » ، وعن « المنار » نشر فى الناس كذلك ، ولكن طبعة « المنار » تختلف عن الطبعات الباقية بأنها حذفت

---

(١) طبع بعنوان « سجل مذاكرات جمعية أم القرى أو مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد فى مكة المكرمة سنة ١٣١٦ ، جامعه السيد الفراتى كاتب الجمعية » ونشر فى المجلد الخامس من مجلة « المنار » الإسلامية بمصر ١٣٢٠ ؛ وطبع كذلك على نفقة إبراهيم فارس ، صاحب مكتبة الشرق فى مصر شارع كلوت بك .

(٢) رشيد رضا ، مجلة « المنار » ، ١٩٠٢ ، ٢٧٩/٥ .

(٣) كامل الغزى ، مجلة « الحديث » ، ١٩٢٩ ، ٤٤٨/٦ ، نقلنا العبارة فى الحديث عن حياته قبل صفحات .

(٤) رشيد رضا ، مجلة « المنار » ، ١٩٠٢ ، ٩٥٩/٤ وما تليها .

أشياء فى الدولة العثمانية ، وهى كذلك منقحة ومزيدة بدليل ما قال صاحب « المنار » فيها : « وقد وعدنا جامع الكتاب بتنقيح النسخة التى سننشرها فى المنار وبإضافة زيادات إليها هدت إليها الحنكة والاختبار » .

ولهذا لا نستطيع أن نحكم على الكتاب كما خرج من قلم مؤلفه فقد تولاه الزمان بالتصحيف والتحريف بعد وفاته ، وصدر فى حياته منقحاً بقلم السيد رشيد رضا ؛ أو بقلم الشيخ محمد عبده ، كما قال الأب شيخو[1] ، فقد كانا مشهورين فى مصر ، ومعروفين بأسلوبهما الأدبى وبيانهما الإنسانى ، قبل أن يفد إلى مصر .

وكلّ الذى نستطيع أن نقول فى أسلوب كتابته إنه قريب من أسلوب هذين الرجلين ، وهو أسلوب الفحول لذلك العصر ، فقد اختلط على الناس كما قال المؤرخون لزمانه ، وحار الأدباء فى نسبته إلى أحد المشهورين ، وتخبطوا فى معرفة صاحبه حتى انكشف للناس اسمه ، فأعجبوا به أيّما إعجاب .

هذا فى بيانه وأسلوب إنشائه ، أمّا من حيث الفكرة فقد قال أحد الكتاب : « وقد أخذ فكرة الأفغانى فى عقد المؤتمر الإسلامى فشرحها شرحاً مطوّلاً فى كتابه الذى صدر باسم سجلّ جمعية أم القرى ، وضمن هذا الكتاب أعمال المؤتمر الذى لم يكن عقده » وهكذا كان للكواكبى أن يجعل فى الطليعة ، وأن ينسجم مع كبار المفكرين المصلحين فى عصره ، فهو طوراً يشبه محمد عبده ، وطوراً جمال الدين الأفغانى ، وأحياناً الشيخ رشيد رضا[2] ، فى الأسلوب وفى الفكر ،

---

(١) تاريخ الآداب العربية فى الربع الأول من القرن العشرين » تأليف الأب لويس شيخو ، نشرت تباعاً فى المشرق ٢٣/٣٨٣ ، ثم فى بيروت ١٩٢٦ ، ص ١٨ : « ونظر فيه الشيخ محمد عبده » .

(٢) يقول رشيد رضا : فى « المنار » ٥/٢٧٩ : « وقد كنا على وفاق معه فى أكثر مسائل الإصلاح حتى إن صاحب الدولة مختار باشا الغازى اتهمنا بتأليف الكتاب عندما اطلع عليه . وربما نشير إلى المسائل التى خالفنا فيها الفقيد فى هامش الكتاب عند طبعه ، وأهمها الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية » .

ومهما قيل فى عون هؤلاء الكتّاب للسيد الكواكبى فقد كان الرجل مبدعاً مبتكراً، بل إنه كان كاتباً اجتماعيًّا مثيراً وقصصيًّا عظيماً. فقد استطاع أن يكتب فى إصلاح قومه على أسلوب قصة تخيّلها ونظم فصولها ، فتصوّر أن جمعية من المسلمين اجتمعت فى مكة فى ١٥ من ذى القعدة سنة ١٣١٦ هـ ١٨٩٨ وأن كل قطر إسلامى أوفد عضواً يمثله فى هذه الجمعية . وأنهم اختاروا العضو المكى رئيساً لهم — على عادة المؤتمرات فى العالم اليوم — واجتمعوا قبيل الحجّ للتداول فى أمور المسلمين يعرضون الأدواء ويصفون الأدوية ، ويشخّصون الأمراض ويبسطون العلاج .

ويخيل للقارئ أن هذه القصة من نسج الخيال فحسب لكنّ الكواكبى يقول : « إنّ لها أصلاً من الحقيقة » وقوله هذا يزيد القصة روعة ، ويدعم خيالها ما يُدير فيها من حوار وما يجعل بين يديها من مقدّمة .

فهو يكنى نفسه بالفراتى ، ويقول إنّ بعض أفاضل العلماء والسُّراة[1] والكتّاب السياسيين بحثوا الوسائل للنهضة الإسلامية ، فأخذوا ينشرون آراءهم فى ذلك فى الجرائد الإسلامية الهندية والمصرية والسورية والتتارية ، ويقول إنه اطلع على كثير من مقالاتهم فى هذا الموضوع وإنه قلّدهم فنشر ما عنّ له . ثمّ بدا له أن يعمل على توسيع هذا المسعى بعقد جمعية من سراة الإسلام فى مكة مهد الهداية فعقد العزم على إجراء سياحة بزيارة أمهات البلاد العربية لاستطلاع الأفكار وتهيئة الاجتماع فى موسم أداء فريضة الحج ، فخرج من بلدته إحدى مدن الفرات فى أوائل محرم سنة ١٣١٦ هـ ، ثمّ سلك الطريق البحرى من إسكندرونة إلى بيروت فدمشق ويافا والقدس والإسكندرية ، فمصر ، والسويس ، والحديدة ، فصنعاء ، فعدن ، وعمان ، والكويت ، وحائل[2] ، فالمدينة ، ومكة ، ووصل إليها فى أوائل ذى القعدة فوجد الأفاضل الذين اجتمع بهم فى

---

(١) السراة : جمع سرى .

(٢) حائل : قاعدة إمارة نجد .

البلاد قد أجابوا الدعوة عدا الأديب البيروتى . ثمّ سعى فى تخيّر اثنى عشر عضواً أضافهم إلى الأعضاء من مراكش ، وتونس ، والقسطنطينية ، وبغجة سراى ، وتفليس ، وتبريز ، وكابل ، وكشغر ، وقازان ، وبكين ، ودلهى ، وكلكتا ، وليفربول .

ثم تخيّر داراً فى حى متطرف بمكة يعقد فيها الاجتماعات بصورة خفية ، واستأجرها باسم بوّاب داغستانى روسى لتكون مصونة من التعرّض . وانعقد المؤتمر من منتصف الشهر إلى سلخه ، فى اثنى عشر اجتماعاً غير اجتماع الوداع ، فكانت مذكرات هامة صار ضبطها وتسجيلها بكمال الدقة ، وكان هذا الكتاب هو السجل يتضمن كيفية الاجتماعات والمفاوضات والمقرّرات عدا ما آثرت الجمعية كتمانه .

وراح السيّد الكواكبى يبسط فى الكتاب سجلّ الاجتماعات فى اثنى عشر فصلاً ، أرخ لكل اجتماع باليوم والتاريخ .

١ — الاجتماع الأوّل : « خطبة الرئيس » وكان عدد الأعضاء فيه اثنين وعشرين فاضلاً كلهم يحسنون العربية ، عرّف الفراتى بعضهم إلى بعض ، ووزّع عليهم قوائم مطبوعة بالجلاتين استعارها من تاجر هندى بمكة ، وترجم لكل منهم فيها ، ببيان الاسم والنسبة والمذهب والمزية ، وأوضح الرموز التى يستعملها فى المؤتمر .

وأعضاء الجمعية[1] هم : الفراتى ، الشامى ، القدسى ، الإسكندرى ، المصرى ، اليمنى ، البصرى ، النجدى ، المدنى ، المكى ، التونسى ، الفاسى ، الإنكليزى ، الرومى ، الكردى ، التبريزى ، التاتارى ، القازانى ، التركى ، الأفغانى ، الهندى ، السندى ، الصّينى ، ورئيسهم المكى ، وكاتب الجمعية هو الفراتى نفسه .

وتكلّم الرئيس فى الانتصار للدين والسعى للديمقراطية فى الحكم « وأمرهم

(١) حضر الجمعية ممثل أو أكثر لكل قطر إسلامى أسبغ على كل منهم وصفاً ونعتاً خاصاً كالبليغ والحافظ .

شورى بينهم» ، وبسط أمر تقهقر المسلمين منذ ألف عام ، وأن الشلل استولى على كلّ أطراف المملكة الإسلامية ، وأن الخطر قرب من جزيرة العرب فسعى المخلصون لتوحيد الوجهة وجمع القوة ، فنشروا مواعظ ومباحث تدور حول الحالة الحاضرة ، من جهل وخلل وتُنْحى باللائمة على الأمراء والعلماء والأمة لتقاعسها عن الاتفاق . وأوصى الرئيس بالاكتتام فى الاسم والصراحة فى القول ، ونبذ المذاهب المختلفة واتباع مذهب السلف وهى عقيدة الحنابلة التى يأخذ بها أهل الجزيرة . ثمّ دعاهم إلى عدم اليأس مما وصلت إليه الأمة من ضعف وفتور فقد نشأ فى الإسلام أنجاب أحرار وحكماء أبرار يستطيعون أن يوقظوا الأمة من غفلتها الحاضرة وخاصة إذا استطاعت أن تضمّهم جمعية كهذه الجمعية ، فيد الله مع الجماعة . وطلب إليهم التفكير فى المسائل التى ستدور حولها المباحث فى كلّ يوم عدا الثلاثاء والجمعة ، من بعد طلوع الشمس إلى قبيل الظهر . وهذه المباحث تحوم حول سبب الفتور فى الأمّة الإسلامية وتشخيص دائها ووصف دوائها ومقاومة البدَع والشرْك .

٢ — الاجتماع الثانى : « الدّاء أو الفتور العام » وتناول الرئيس بحث الفتور النازل بالمسلمين ، وذكر أن هؤلاء أقلّ نشاطاً وانتظاماً من جيرانهم غير المسلمين حتى لقد خُيّل للناس أن الإسلام والنظام لا يجتمعان ، وتكلم الهندى فرأى غير المسلمين من النِّحل الوثنية أكثر فتوراً من المسلمين ، فتراجع الرئيس « المكى » عن رأيه وطلب إلى إخوانه أن لا يصرّوا على رأيهم الذاتى وأن لا ينتصروا له ، فالرأى خاطر يسْنَح وربما كان صواباً أو خطأ ، والأساس هو البحث والمناظرة . ونقد « الشامى » العقيدة الجبرية فرأى أنها من المخدرات المثبّطات ، فأجابه القدسى إنها وجدت تنفيساً للمقهورين البائسين فهى سبب لاعتدال النشاط . ودفعّ إلى الإيثار العام ، وإنما السبب فى الفتور هو تحوّل السياسة الإسلامية من ديمقراطية إلى ملكية مقيدة ثمّ مطلقة . وقد جعل المتطرّفون منها وسيلة للانقسام فى الرأى فوقعت الحروب الداخلية والخارجية ، وأصبح بأس المسلمين بينهم ، وأجابه « التونسى » إن جرمانيا وقع فيها مثل ذلك ولكنها نجحت ، فسبب البلاء

تأصُّل الجهل فى غالب أمراء المسلمين المترفين . ورأى « الرومى» أن البليّة هى فى فقد الحرية ، حرية التعليم وحرية الخطابة والمطبوعات وحريّة المباحثات العلمية ، فالحرية هى روح الدين ومنذ فقدت الحرية لجأنا إلى الخرافات والملهيات فضعف إحساسنا وألِفَ كثير منا الاستعباد والاستبداد والذلّ والهوان فصار الانحطاط طبعاً ، وصارت المطالبة بالإصلاح مُروقاً من الدين ، كأنّ مجرد كون الأمير مسلماً يُغنى عن كلّ شىء حتى عن العدل ، وكأنّ طاعته واجبة على المسلمين وإن كان يخرب بلادهم ويقتل أولادهم ويقودهم ليسلمهم لحكومات أجنبية . ورأى «التبريزى» وجوب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وأجاب « الفاسى » إن طاعة أولى الأمر واجبة ، ولكنّ الصيغة صريحة لا تؤيد سلطة الأمراء على الإطلاق ونقل على ابن طباطبا[1] فى « الآداب السلطانية » ما كان سنة ٦٥٦ من فتوى العلماء حول أفضلية السُّلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم الجائر ؟ ففضّلوا العادل الكافر ، ثم ضرب المتحدث الأمثال بحكمة بسمارك وغاريبالدى وتمنى أن يرى فى العرب رجالاً مثلهما يجمعون كلمة الأمة ويوفقون بين الأمراء . وأجاب « المدنى» بأن الطامّة هى من تشويش العلماء المدلّسين وغلاة المتصوّفين الذين استولوا على الدين فضيّعوه وضيّعوا أهله ، يتأوّلون القرآن بما لا يحتمله بمحكم النظم الكريم ، ويدّعون تسنم المقامات وزخرفة القربات ، فاقتبسوا من أصحاب التّلمود والبابوية ومقامات البطارقة والكردينالية والرهبنة مراتبهم ومراسمهم سحراً لعقول الجهلاء واختلاباً لقلوب الضعفاء ، ووضعوا أحاديث مكذوبة ، وأقاموا لهم أسواقاً فى العواصم فسرت الخزعبلات والأوهام وأفسدوا العامة . ورأى « الرومى» أن المنشأ لكلّ فساد هو انحلال السلطة القانونية ، وتسلّط فرد عليها .

٣ ــ الاجتماع الثالث : « الدّاء أو الفتور العام ». وهنا أكمل « الرومى»

---

(١) ابن طباطبا هذا هو المعروف بابن الطقطقى المتوفى سنة ٧٠٢ هـ صاحب كتاب « الفخرى فى الآداب السلطانية » .

قوله فى ولاية الجهّال المتعمّمين ، وتدخلّهم فى كلّ شىء مما يصدع الشرع ، فهم يزيّنون للأمراء استقلالهم فى الرأى ومعاداة الشورى ، فأجابه « الكردى » إن العلماء اقتصروا على العلوم الدينية وبعض الرياضيات وأهملوا باقى العلوم الرياضية والطبيعية ، وهذا سبب نمو الغرب ورقيّه . وهم يقتصرون على البحث فى النوافل والحكايات الإسرائيليات والنّوادر والكرامات وذلك جعلهم أحطّ من غيرهم . فقال « الإسكندرى » إنّ السبب فى الفتور هو يأسنا من مباراة الأمم الأخرى . ورأى « الأفغانى » أن الفقر هو السبب لأنه قائد كلّ الشرور ، والحكومات صارت تجبى الأموال من المساكين والفقراء وتبذلها للأغنياء . وقال « الإنكليزى » إن المسلمين إذا اتبعوا دينهم أمنوا الفقرَ واستغنوا عن المبادئ المتّبعة فى الاشتراكية ، وطلب التساوى والتقارب فى الحقوق ، ورأى أن فقد الاجتماعات والمفاوضات والوعظ فى أمور الجماعة أفقد الإحساس باجتماع الشمل للبحث فى أحوال المسلمين . وعند الغرب يتوجّهون إلى اختراع مبادئ لاجتماعهم كعقد الندوات والتفرغ للمذاكرة وإلقاء الخطب وإبداء التظاهرات ، وإيجاد المتنزهات والتمثيليات وادخار الآثار ، وإقامة النصب ، وإنشاد الأغانى والحكم ، وكلّ ذلك ينشىء فى القوم حياةً اجتماعيةً ويبعث الحماسةَ والحميّة . ورأى « الصينى » أنّ السبب ميل الأمراء إلى العلماء المتملّقين المنافقين الذين يزيّنون لهم الاستبداد . وتطرّق « النجدى » إلى تبدّل النظرة إلى الدين ، فطرأ التأويل والتحريف عليه ودخله الشّرك فأمسى محتاجاً إلى الرشد والإصلاح .

٤ — الاجتماع الرابع : « الدين والإسلام والشرك والتصوّف » . فتكلم « النجدى » باحثاً فى ناموس الكون ، ووجود الأنبياء ورسالة المصطفى ودعا إلى اتباع الصريح المحكم من القرآن ، والواضح الثابت مما قال الرسول . ورأى أن آفة البشر الشرك ، فالناس سريعو الإعراض عن ذكر الله إلى ذكر مَنْ يتوهمون فيهم أنهم شركاء وأنداد لله ، فيعظّمونهم ويخضعون لهم ويدعونهم ، ويرفعون حاجاتهم إليهم . وعدّد الإشراك فى الملك وفى الصفات وبسط الأمر فى حال

المشركين من إعداد الأصنام والتماثيل ، والوقوف عند القبور وطلب الحاجات والاستغاثة بالشيوخ ، وجعل الدين لهواً ولعباً فتغنّوا ورقصوا ونقروا الدفوف وهم يُظهرون الخشوع والعبادة .

ومن العلماء من حمل كل ما فعله الرسول أو قاله على التّشريع ، فعظم التّشدد فى الدين . وبسط المتكلم حكايات عن النبىّ وشواهد لحياته وأقواله فى هذا الصدد ، وسرد الأحاديث الكثيرة والآيات البيّنة ، وروى ما كان من المتأخرين فى تقليد الرسول بالسواك وغيره . وقال إن غالب العلماء الشافعية يُحسنون الظن بغُلاة الصوفية . فأجابه « المصرى» مبيّناً مذهب الشافعية من الإعجاب بالزّاهدين والمتصوفة والتأوّل لهم ، ولكنّ أهل الجزيرة أهل عصبية وصلابة رأى وعزيمة لا ينساقون مع البدع وإنما يتمسكون بالدين الحنيف كما جاء وينفرون من التوسّع فى البحث .

٥ — الاجتماع الخامس : « الكتاب والسنّة النبوية ». وفيه تكلم « الإنكليزى» فذكر إسلامه مستهدياً بالكتاب والسنة ، وأنه كان بروتستانتى المذهب ، والبروتستانت انقلبوا عن الكاثوليكية لترجيحهم الاقتصار على الإنجيل ومجموعة الكتب المقدسة ، متوناً فقط ، أى بإهمال الشروح والتفسيرات وهم يُنكرون الرياسة الدينية والرهبانية والتوسل بالقدّيسين ، ولذلك تقرّب من الإسلام ووجد فيه ضالته ، وهو هنا يجب أن يعلم ما الكتاب وما السنّة ، وكيف يلزم المسلم العمل بهما ؟ فأجابه « النجدى» متوسعاً فى تعريفهما وفى الكلام عن نواسخ الأحكام وتفرُّق بعض المسلمين فى فهمها . وتكلم « المصرى » عن مراتب الأحكام والعبادات ورجا لو ألّف فيها العلماء كتباً منسقة تسهل على العامة أن تعرف بها ما يكلفها الدين إياه . وتحدّث «اليمنى» عن حال الإسلام فى اليمن وأنه يتبع أصول ابن حنبل ، وأن العلماء فيه يعرفون العربية المضرية القرشية معرفة كافية . ويقرءون كتاب الله قراءة فهم ، ويتضلّعون فى السنّة المدوّنة ، ويكونون واسعى الاطلاع على سيرة النبى وأصحابه ، وأصحاب عقل سليم فطرى لم يفسده المنطق

والجدل ونزعات المعتزلة وإغرابات الصوفية . وقال إن هناك طبقة تليهم هى طبقة القرّاء ، الذين يقرءون كتاب الله قراءة فهم ويستهدون فى أصول الدين بأنفسهم ويبنون ذلك على قرآن ناطق أو سنّة صريحة .

٦ — الاجتماع السادس : « تفرّق المسلمين إلى شيع ومذاهب» . تكلم « السندى» عن طريقة بلاده ، وذكر أنهم يتبعون النقشبندية وقد اعترف أن فيها بدعاً عرف تحريمها حين حضر هذه الاجتماعات ، فعزم على النّصيحة والموعظة لهداية جماهير النقشبندية وتصحيح وجهتهم فى بلاده، وذكر أن سبب نشوء هذه الطرق هو تضييق الفقهاء على المسلمين أمر العبادات ، فصار المسلم لا يرى لنفسه فَرَجاً إلا بالالتجاء إلى صوفية الزمان الذين يهوّنون عليه الدين كلّ تهوين . وعلق الرئيس « المكى» موضّحاً بحث التصوّف ، فبدأ بالتنسك فى المسلمين وانتهى إلى دخول الفساد على التصوّف وإضراره بالدين وبالمسلمين خلال القرون ، وذلك عندما سيطر الغلاة على الأمر . وتكلم « القازانى» فقصّ حكاية المستشرق الروسى الذى اهتدى إلى الدين الإسلامى فاجتمع بمفتى قازان يريد أن يتتبع القرآن وأن يتحقق ما ورد عن رسول الله (ص) ، وروى النقاش الذى دار بينهما حول رواية الأحاديث وموقف الأئمة منها ، وما كان من رأى المستشرق فى تحقق المسلمين بأنفسهم كلّ دليل من الكتاب أو السنة ، وأنهم على تشديد وتشويش فى أمر الدين سبب انحطاطهم كما سبب انحطاطَ من قبلهم من أهل التلمود والإنجيل ؛ وأنه يرى أن يؤلف كتاباً يصور حكمة دين الإسلام وسماحته . ورأى « التبريزى» أن الفتنة التى أصابت الإسلام كانت فى التدقيق والجدل حول الخلافات بين الأئمة ، فاتسعت دائرة الأحكام فى الشرع ، وصار الخلف عاجزين عن التقاط الفروع ، وأقبل المتأخرون على التقليد ، وصار أهل كلّ إقليم يتعصبون لمؤلفات شيوخهم ، وتقسم المسلمون بذلك شيعاً وأحزاباً ، وضرب لذلك مثلاً حال بلاد فارس .

٧ — الاجتماع السابع : « مجمل الأدواء والأدوية » .

وهنا طلب الرئيس من « الفراتى » أن يُبدى رأيه فى سبب الفتور المبحوث

فيه وأن يقرّر مجمل الآراء المعروضة ، فراح الكاتب يورد خلاصة ما كان من سبب فى انحطاط المسلمين وما اقترح الأعضاء من أدوية وعلاجات لذلك ، فلخصها فى أسباب ثلاثة : دينية ، وسياسية ، وأخلاقية . وانتهى إلى إبطال التخالف وتشويش الأفكار وإسكات المدلسين وخلع المنجمين ونبذ التقليد والتعصب للمذاهب ؛ وإلى طلب الحرية ونزع الاستبداد وإبعاد الأمراء المستكبرين المترفين ، وإلى محو الجهل وتقوية التعليم ، وصرف التملق . وأضاف إلى ذلك أسباباً أخرى فى السياسة والإدارة العثمانيتين ، حيث طلب توحيد القوانين ، وتولية الأكفياء للمناصب الخطيرة ، وندّد بهضم الدولة العثمانية لحقوق العرب فى هذه المناصب ، وتمييزها الأسافل ، وإدارتها المعتمدة على التزلف والرشوة وبغضها للعرب ونبذهم بالألقاب ، وهاجم أمة الترك وما جلبت من نقمة على العرب .

٨ ــ الاجتماع الثامن : « حال النشء الخلقية » .

أكمل « الفراتى » قوله ، فبسط معايب الأمة ، وإهمالها لشئونها ، وتعلقها بالفوضى ، وركونها إلى الخمول والكسل ، وسعيها نحو التمجد والتعالى ، وتركها النساء جاهلات مع العلم بأن أكبر مسبب لانحلال أخلاق الأمراء أتاهم من جهة الأمهات والزوجات السافلات ؛ ونظرتهن إلى الأجانب نظرة الكمال وتقليدهم والتمسك بعاداتهم . والنشء المتفرنج لا خير فيه لأنه ينظر إلى الأعاجم نظرته إلى سيد متفوّق .

٩ ــ الاجتماع التاسع والعاشر والحادى عشر :

قرىء فيها قانون الجمعية فقرة فقرة ، وأبديت عليه الملاحظات قبل إقراره .

١٠ ــ الاجتماع الثانى عشر : (قانون الجمعية) .

إقرار القانون بتعليم الموحدين ، مع تأليف الجمعية ، وشروط الأعضاء فيها ، ومركزها وشعبها ، ومبانيها ، وأموالها ، ونفقاتها ، ووظائفها ، ومساعيها وأعمالها ، ووضعها المؤلفات والكتب والمتون والأبحاث والمقالات . وتقرر بعد ذلك

نشرُ القانون وترجمته إلى التركية والفارسية والأوردية . واختارت الجمعية مركزها الموقت فى مصر دار العلم والحرية . وكان اجتماع الوداع فى رابع أيام العيد فأقرت الجمعية بعض قرارات سرّية لا تذاع وتلحق بالسجل . ومنها أنها ربطت آمالها بجزيرة العرب ، فهى مشرق النور الإسلامى ، وفيها الكعبة والمسجد النبوى وشعبها أسلم الأقاليم من الأخلاط جنسية وأدياناً ومذاهب ، وأحرص الشعوب الإسلامية على الحرية والاستقلال ، فهم عرب ، والعرب أعرق الأمم فى أصول الشورى وأحرصها على احترام العهود ، وأنسبها ليكونوا مرجعاً فى الدين وقوّة للمسلمين .

وهذه الأسباب جعلت جمعية أم القرى تعدّ العرب الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية بل الكلمة المشرقية . وهكذا تمت الاجتماعات .

* * *

وأضاف السيد « الفراتى » بعد نهاية الاجتماعات لاحقة بين فيها سبب تعلق الجمعية ببحث السياسة الدينية وإحلالها الموقع الأول فى مناقشاتها ، فقال إنها بحثت علة الفتور فرأت أنها الخلل الدينى فإذا زالت العلة زال المعلول . ودار حول النقد الذى يمكن أن يوجه إلى هذا القانون من صلة الدين بإدارة الملك ، وتحدث بعد ذلك فى الخلافة الإسلامية على مرّ العصور حتى بلغ إلى العثمانيين وتكلم عن سلاطينهم ، ورأى بعد ذلك أن تكون الجامعة الدينية تحت لواء الخلافة ، وأن يكون الخليفة عربيًّا قرشيًّا مستجمعاً للشرائط ، وأن يكون مركزه « مكة » ، ترتبط به جميع السلطنات والإمارات الإسلامية ارتباطاً دينيًّا . ورسم هيئة الشورى والاتحاد الإسلامى وسوّغ إرجاعَ الخلافة إلى العرب ، وحلل أسباب الغزو التتارى والأوربى خلال القرون وبين أنها ليست من أنواع الجهاد ولا من الحروب الدينية وإنما هى غارات قرصان .

* * *

هذه هى الخطوط الرئيسية لكتاب « أمّ القرى » رأينا فيها كيف أحكم

الكاتب قصة الاجتماعات والمناقشات ، حتى لكأنها دارت حقيقة فى مكان معلوم وأسلوب محدود ، لم يفته فى وصفها شىء من أدق التفاصيل ، فهى رواية عظيمة — كما قال الأستاذ أحمد أمين — بل إنها خطة لجامعة إسلامية قد انعقدت منذ خمسين عاماً ، وصفها شاهدها وصف عيان ، وبحث فيها مشكلة المسلمين والإسلام ، ورسم علل الأمم المحمدية من المشرق إلى المغرب وصف حاذق سياسى إدارى عالم ، كشف عن معرفته للمذاهب الأوربية والشرقية فى الدين والسياسة والعلم ، وأفصح عن رسوخ قدمه فى فهم الدين الإسلامى فهماً عميقاً فصّل فيه الأمر عن العبادات والمعاملات وأوضح أنه إمام من أئمة الدين فى الاستشهاد بالكتاب والسنة استشهاداً لا يقع إلا للمتبحرين فى المصادر الإسلامية الغراء ، الواقفين على تاريخ الإسلام وتقلبه على العصور ، المتحمسين للعروبة القرشية ، والخلافة المحمدية ، والديمقراطية الإسلامية ، ورفع صاحبه إلى مصاف العلماء المؤرخين المصلحين الذين فهموا الدين وصلته بالتاريخ وعلاقته بالشعوب ، فهو لا يقل شأناً عن كبار الفلاسفة الدينيين فى الغرب مثل « لوثر » و « كالفين » وغيرهما . وهو قد تناول المشاكل التى نحس بها اليوم ونشكو منها ونختلف فيها ، فكتابه ما يزال كتاب الساعة ودستور الإسلام ، يجب أن يعود إليه العربُ والمسلمون ليعرفوا الإسلام الصحيح ، والعلة الخفية ، والدواء الناجع ، على لسان عالم صادق مخلص ، عبقرى ، ابتكر هذه الرواية من خياله فيما نظن ، وسبق الزمان فحق للجامعة العربية أن تستقى من بحوثه وأن تستشف من آرائه ، وأن تستنير بهديه ، فهو مصلح الإسلام فى القرن العشرين ، وهو طبيبهم — كما يقول الأستاذ أحمد أمين — يفحص المرض فى هدوء ويصف الدواء فى أناة ، فهو رزين هادئ الطبع صافى الذهن ، واسع الفكر عظيم الإلمام ، وهو إلى ذلك روائى ومسرحى واجتماعى ودينى ، ندر أن تجد العربية مثيلاً له فليتها عادتْ إليه ، ونظرتْ فى كتابه ، وأقرته لمدارسها العالية ، وتناولته بالبحث والقراءة والمطالعة ، مع النظر إلى الزمن الذى ألف فيه ،

والضيق الذى نُشر خلاله ، وضآلة المصادر وصعوبة الاتصال بين الشعوب ، وبُعد المؤلف عن الدراسة العالية والشهادة السامية والجامعة المثالية . ولكنها العبقرية لا تحتاج إلى مدرسة ولا إلى شهادة أو جامعة ، لأنها منارة تهتدى بهديها الجامعات ، وتنال على نورها الدراسات ، وترتفع بها الشهادات ، فإذا كان أفلاطون قد اشتهر بكتابه « الجمهورية » فى اليونان والعالم ، فإن الكواكبى لا يقلّ عنه شهرة بكتابه « أمّ القرى » فى العرب والعالم .

* * *

(ح) صحائف قريش : ألفه السيد عبد الرحمن الكواكبى كذلك ، وذكره ابنه الدكتور محمد أسعد ، فقال : « وكان معدًّا للطبع ولكنْ حال دون ذلك سياحته الطويلة المذكورة فى غير هذا المكان ثمّ وقوع الوفاة الفجائية ، فصُودر مع الأوراق المصادرة ، وأرسل هدية إلى السلطان . وقد بحثتُ عنه فى أكثر من دور الكتب الأهلية بالآستانة بعد إعلان الدستور وخلع السلطان فلم أعثر له على أثر[1] » . وقد أعلن الكواكبى نفسه عنه فى صدر كتابه « أمّ القرى » فقال : « مَنْ يظفر بنسخة من هذا السجلّ فليحرص على إشاعته بين الموحدين ، وليحفظ نسخة منه ليضيف إليه ما سيتلوه من نشريات الجمعية باسم " صحائف قريش " التى سيكون لها شأنٌ إن شاء الله فى النهضة الإسلامية العلمية والأخلاقية » . ولا شك فى أن هذا الكتاب يعالج فضل الخلافة فى قريش وفضل مكة على غيرها فى قاعدة الخلافة ، وهو تتمة لبحوثه فى « أمّ القرى » .

(د) العظمة لله : ألفه الكواكبى كذلك وذكره ابنه فقال : « هذا الكتاب أيضاً لم يُطبع ، وقد صودر مع أمثاله[2] » . وقد ذكر الأستاذ الجليل محمد كرد على — الذى كان من أصحاب المرحوم إبان وجوده فى مصر — فى كتابه « المذكرات » أنه اطلع عليه . وقد قال الأستاذ الرئيس كرد على فى مذكراته

---

(١) « الحديث » ، محمد أسعد الكواكبى ، ١٩٥٢/٩/٥٤٨ .

(٢) المصدر نفسه بالصفحة نفسها .

يصف سرقة أوراق الكواكبي ، وأن السلطان أرسل مدير معارف بيروت عبد القادر قباني يحملها إليه ويرضى أسرته بمبلغ من المال : « فما حمل إلا عدداً معيناً من كتب الكواكبي المطبوعة . أما المخطوطة فأخذها أحد البالغين الراشدين من أولاده ، وفيها كانت أوراقه السرية ، وبعض كتبه التي بدأ بوضعها ، ومنها ما قرأ لي مقدمته واسمه (العظمة لله) . وكان سياسياً كسائر ماخطته يمينه »[١] .

(هـ) مجموع أشعار : ذكر ابنه فقال إن أباه كان يسجل ما يروقه من الشعر ، ويصنفه على عشرين صنفاً ، واضعاً في نهاية كلّ بيت شعر رقماً خاصاً يدلّ على غزل أو نسيب أو مدح أو هجاء أو رثاء إلخ . . وقال : « ولا أزال أحتفظ بكناش[٢] فيه مجموع أشعار تنوف على الثلاثة آلاف بيت مصنفة على الطراز المذكور ومحررة بخطه المشهور الذى لا يقلد ، إلا أنه لم يكن في حياته مكترثاً لقول الشعر الذاتي ، حيث لم أعثر له على شيء من ذلك سوى بعض أبيات حماسية قالها عفواً حين تحريره "أمّ القرى" في حلب ، وقصيدة حرّرها وأرسلها من مصر إلى أخيه السيد مسعود وهي بائية صورتها محفوظة عندي[٣] » . ولعل القصيدة التي يشير إليها ابنه هي القصيدة الواردة في أم القرى[٤] ولكنها ميمية أنشدت على لسان الرئيس « المكي » في مدح الدّين والدعوة إلى تنقيح الشرع من الحشو والبدع ، وهي أشبه بنظيم العلماء منها بشعر الشعراء والفحول .

وحبذا لو نهض عالم أديب لطبع هذه الآثار طبعاً علمياً ، وخاصة كتاب « طبائع الاستبداد » فأضاف إليه ما حرّره صاحبه من زيادات على الطبعة الأولى ، وهي تقرب من ثلث الكتاب رأيناها ، وقد أعدّها ابنه للطبع بنفسه ووقفته دون ذلك ظروف الحرب الثانية كما قال[٥] . فهي

(١) « المذكرات » ، محمد كرد علي ، ج ٢ / ٦١١ ، بعنوان : « الدم الطاهر » .
(٢) الكناشة : مجموعة كالدفتر تدرج فيها الشوارد والفوائد .
(٣) « الحديث » ، محمد أسعد الكواكبي ، ١٩٥٢ ، ٩ / ٥٤٥ .
(٤) الطبعة الرابعة « لأم القرى » ، ص ١٥٨ .
(٥) محمد أسعد الكواكبي ، « الحديث » ١٩٥٢ ، ٩ / ٥٤٩ .

هامة فى كمال فهم المؤلف وأسلوبه وتطوره، حررها قبل وفاته بثلاثة أشهر فى مصر ، وهو فى جو الحرية والعلم والمصادر مما لم يتح له مثله فى حلب .

٢ ـ الكواكبي الوطني

نظر الكواكبي إلى الوطن نظرة الأمويين إلى وطنهم حين الفتوح ، فرأى أنه يمتدّ من تخوم السند إلى أقصى تطوان فأحبّ أن تربط بين أجزائه رابطة العروبة واللغة والدين ، وعمل لهذا الوطن الكبير كما يعمل بعض الزعماء المصلحين اليوم ، فأحبه وعمل له وتفانى فى سبيله ، فلم يقعد منذ نعومة أظفاره عن المناداة بحبه والدفاع عنه والعمل له ، فحرّر وكتب المقالات فى إصلاحه ودفع الأذى عنه . وحين تولى الوظائف عمل جاهداً فى الإصلاح والخير ، فلما كتب كتبه نادى بحريته ونزع سلطة العثمانيين وجورهم . ولم يهب جواسيسهم وعيونهم والمرضى والخونة من أبناء قومه ، وهاجر حين ضاقت به سبل الاستبداد والاستعباد فنزح إلى مصر ساعياً فى حرية وطنه وقومه من جور الأتراك . وساح فى أطراف هذا الوطن الواسع يريد أن يلم شعثه وأن يجمع كلمته وأن ينقيه من أمراضه وعلله ، فكان الوطنى المخلص المتفانى الذى ينادى بطرد المستعمرين عن أرضه لأنهم مستغلون أنانيون يسلبون أموال أمته ويزاحمون المواطنين على أملاكهم ، ويتحيلون لإذلالهم ، فهم طامعون فى عبودية شعبه وإفقاره وإبقائه على الجهل . وهو يصف الاستعمار بأنه تاجر يستمتع بوسائل الشرق وغناه . وآراؤه فى الوطنية لا تختلف عما ينادى به أعمق المتحررين من زعماء الشرق والعروبة اليوم ، وعمله لوطنه لا يقلّ عن عمل الجيوش المكافحة عن الحمى والذائدة عن الحدود ، فهو وحده حمل القلم ونادى بحرية أمته وطرد الغاصبين عنها ، لم يستسلم لمغريات المستعمرين ولم يلن أمام تهديدهم ، وقد كان يستطيع أن يرضى بالمناصب الرفيعة

وأن يؤثر العافية على هذا النضال الذى وقف له أيام حياته كلها ، حتى قضى وطنياً مكافحاً فى سبيل هذه الإمبراطورية العربية ، لم ينل من دنياه غير الغصة والأسى والألم والحرقة ، متنقلاً مهاجراً غريباً لاجئاً فى كل قطر عربى ، لأنه كان يجد فيه وطنه الكبير وأمله المرتجى . لم ينعم بالقصور والرياش والمال ، ولم يبال بما خلف وراءه من زوج وأولاد وأسرة وعشيرة ، وإنما ضرب أروع الأمثال فى التضحية الوطنية ، فكان الزعيم الوطنى الذى لا يباريه فى حبه لقومه ووطنه أكبر زعماء الغرب ومناضليهم ممن عملوا اتحاد ألمانية وإيطالية والولايات المتحدة والولايات السوفيتية . فهو علم من هؤلاء الأعلام الوطنيين ، وسور شامخ فى البذل والفداء ، لا ينساه الوطن العربى أبد الدهر ، ولكن يفتقده فى حلك لياليه ، وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر .

٣ ـ الكواكبى السياسى

دخل السيد عبد الرحمن صرح السياسة من بابها الواسع فكتب فى الصحف ينادى بسياسة عربية إسلامية ، وألف الكتب والبحوث فى سبيل هذه السياسة ، وكان إيجابياً ـ كما نقول اليوم ـ فخط لهذه السياسة منهجها ودستورها وقانونها ، وحدّد الخطة والطريقة ، فكان كمن يرسم لقومه سبيل العمل إلى خلافة عربية قرشية مركزها مكة ، تربط بين أجزائها روابط العرق والدين ، ورأى أن الشعب العربى فى الجزيرة أعرق الشعوب وأبعدها عن شوائب الاختلاط . ثم سنّ لهذا الشعب أسلوب الحكم الديمقراطى الذى يقوم على الشورى والعدل والمساواة . واستعرض طرق الحكم فى الإسلام منذ الراشدين إلى يومه فاختار أحسنها وأقربها إلى الحكم المثالى . ورسم وظائف الأمراء والوزراء وما يكون من المناصب الخطيرة فى فوضى الحكم أو فى نظامه . ونبذ الحكم المطلق ، وكتب فى توزيع الضرائب وإعداد الدفاع عن الوطن ورعاية الأمن وتأمين العدالة القضائية ، فكان السياسى

الواعي الذى يفكر بكل شيء ويخوض فى كلّ دقيقة من دقائق الحكم والسيادة . ومن خلاصة كتابيه تتبين الجمهورية الفاضلة فى السياسة العادلة والخلافة العاقلة . ولا شك فى أنه طرق مشاكل العثمانيين والعرب والغربيين وحللها على ضوء السياسة العلمية المنطقية فكتب لأمته كتاب السياسة مشرق النواحى واضح المعالم لا التواء فيه ولا محاباة ، ولا ميل ولا زيغ ، وإنما كان عربيًّا خالصاً بالرغم من كلّ ما قد يحوم حول سياسته من دعم الغربيين لها أو رضاهم بها .

٤ ـ الكواكبي الاجتماعي

إذا كان الكاتب الاجتماعي هو الذى يصف قومه ويرسم عللهم وأمراضهم ثمّ يتبين الداء ويصف له الدواء فالكواكبي بلا مراء على رأس الكتاب الاجتماعيين الذين دخلوا فى صميم الشعب وأحسوا بأوجاعه وآلامه وشكاواه ، والأمة العربية وقعت فى أشراك الاستعمار والانحطاط والانحلال فتخبطت فى ظلمات الجهل والإسفاف والسخافة ، فسبحت فى بحر من العقائد والبدع والزيف فى الحياة وفى الدين آلت إليها من السحرة والمنجمين والمتفيهقين والمتعالمين أو أدعياء الدين خلال القرون المظلمة فكان لا بدّ لهذا الكاتب من تصوير ما وقعت فيه وابتليت به ، فقد ركبها التصاغر والملق ، والتمجد والتنابذ بالألقاب والسعى وراء الرواتب والمراتب ، والسير وراء الشره والتكالب على المال ، فقام الاحتكار ، وعمّ الاستعمار والاستبداد والطيش والفقر والنزق ، واستذلت النفوس وخمدت الضمائر وماتت الآمال ، وديست المقدسات وفسدت الأخلاق ، وانتصر الحقد ، وضعف حبّ الوطن ، وسيطر الفرد فتلاعب الزعماء المزيفون بالشعب ، وسخروا العامة لمآربهم ، وقلبوا الحقائق ، وعبثوا بالأديان ، واستنام الناس لراحة الفكر والخمود . وسارت فى العامة مثبطات تهوّن من حياتهم الذليلة لا يجدون نجاة من المرض والجهل والفقر وأصبحوا كالحيوانات البهيمية لا تستيقظ ولا تستنير .

لذلك هبّ الكواكبي منذ نشأ مذعوراً لأمته كيف حال بها الحال وآلت إلى شرّ المآل ، فدعا إلى التساوى بين الناس وإلى توفير العلم والغذاء والكساء للفقراء ، ونادى بالعدالة الاجتماعية والأحكام الديمقراطية ، وصاح بالغافلين والمستضعفين صيحته المدوّية فلم تذهب مع الريح وإنما دكت الأطواد ، وآتت أكلها بعد حين ، وكان فى صيحته يتدرّع بالأمل ، ويركب الطموح ، وينبذ اليأس والخوف والجزع ، يريد أن يدفع الفتور عن المسلمين وأن يجمعهم على صعيد الحبّ والتآلف ، وأن يرموا بالخرافات والملهيات جانباً ، وأن يتعلقوا بالاشتراكية العاقلة وأن يتفرغوا للندوات والمذاكرات ، وأن يتلفتوا إلى إنكار الرياسات الدينية الكاذبة ، والرهبانية المحرمة ، والتوسل بالقديسين والمشايخ ، والبدع والصوفية .

وهو بذلك عالج قضايا البيت ، والأسرة ، والتربية ، والمرأة ، والشارع ، والحديقة ، والقصر ، والحكم ، فتطرّق إلى أفراد المجتمع وتناول بلاياه وأمراضه ووصف علله وأدواءه فكان خير حكيم وخير مصلح اجتماعى . ولم يقتصر على القول والكتابة وإنما عالج بنفسه ذلك فنصر الضعفاء والمظلومين حين تولى المناصب إلى أن عافت نفسه الحكم ، فوقف على منبر المصلحين ينادى بملء صدره حتى سكت ما بين جنبيه وقضى .

٥ ـ الكواكبي الأديب

صوّر الكواكبي عصره وزمانه وما يصطرع فيه من أهواء وما يضطرب فيه من نزعات تصوير الكاتب الأديب . فأرسل من نفسه صيحات مدوّية ، بقلم بارع سريع التأثير عميق المدى ، فى لغة متينة سهلة لم تصْطنع قبله لرسم آلام الأمة وأمراضها وأدويتها وعلاجها ، ولا استخدمت قبلُ فى رسم المشاعر القومية والنزعات الاجتماعية والخلجات السياسية . خرج فيها من مستلزمات البيان القديم

فى مزاوجة الجمل واستعمال المجازات والعكوف على السجع إلى ميادين فسيحة من سهولة التعبير وانسجام الجملة ، وتسلسل العبارة ، وانقياد الفكرة إلى أعمق مداها . فكأنّ الكلمات قطعة من نفسه ، أو كأنها حسرات ترسلها ضلوعه أو زفرات يتنفس بها صدره لأنها كانت طبيعية لا تكلّف فيها ، تثير فى القارئ ما أثارت فى المؤلف فتصل بينه وبينه برابطة من فكر ووشائج واسعة التأثير تحمله إلى الجوّ الذى كان فيه الكاتب الأديب ، وهذا هو الأدب الحق فيما نرى . ولقد عالج الأديب موضوعات لا تتصل بالخيال الأدبى ولكنه صاغها بأسلوب أدبى فجعل من بحثه فى سياسة المسلمين رواية أجرى الحوار فيها كما يجرى فى مسرحية كاملة الفصول دقيقة التفاصيل ، وكان لخياله الأدبى الرائع فضل فى ربط أفكارها وجملها ، وانسجام عباراتها وفواصلها لا يقع إلاّ لأديب موهوب .

وفى كتابيه — اللذين حللنا فصولهما قبل قليل — ألواح جميلة من روائع الأدب فى تصوير الاستبداد ، أو الجهل ، أو الفقر ، أو حبّ الوطن ، أو سيطرة البدع ، أو الحثّ على اليقظة والنهضة ، ما يشفع لنا بدفع الأدباء إلى دراسته كأديب كبير من أدباء القرن التاسع عشر ، وفى هذين الكتابين كذلك خطب فى إثارة الهمم وإيقاظ الشعور تصلح أن توازن بالخطب العربية المشهورة لعصورنا الأدبية من متانة التعبير . وصدق التصوير ، وعمق التفكير . وقد قلنا من قبل إنّ أسلوبه اختلط على النقاد فى عصره فنسبوا كتابه فى الاستبداد إلى محمد عبده ورشيد رضا وجمال الدين الأفغانى ، ممن اشتهروا ببرائع البيان فى الصحافة والمقالة . ولعله أخذ بيانه عن مدرسة القرآن وأسلوب الحديث لكثرة ما حفظ فى صباه ووعى فى شبابه من هذين الينبوعين الثريّين[1] ، فجاء بيانه على أبسط أسلوب وأسهل منال ، بعيداً عن التقعر والغوص على الغريب وإطالة الجمل.

ولو قد مدّ الله فى عمر الكواكبى وأطال فى كتابته فعرض للموضوعات الأدبية فى خطبه لسلك فى فحول الأدباء المجلين على عصور العربية كلها . ولكن

(١) الثر : الغزير .

الحال التى كان فيها ، والعيش القلق الذى غمر حياته ، والسعى إلى الهجرة التى راودت فكرته ، والتنقل فى الأسفار أواخر سنيه كلها حالت دون كماله ، ولكنه كان أديباً فى موضوعاته الاجتماعية والسياسية والدينية ما فى ذلك شك لا يجاريه فى طرقها أديب لعصره أو كاتب لزمانه ، وفى النماذج التى نسوقها بعد قليل شاهد على ما نذهب إليه .

٦ ــ منزلة الكواكبى

يحتلّ الكواكبى فى تاريخنا الحديث موقع الصدارة بين الكتاب المفكرين ، والزعماء المصلحين وعلماء الاجتماع ، وأرباب السياسة ، وقادة الفكر ، ورجال الدين ، وأدباء الخطبة والرواية والقصة . فقد كان قائداً من قوّاد النهضة ، وزعيماً من زعماء الإصلاح ، ووطنيًّا مخلصاً وعاملاً مناضلاً ، وعبقريًّا نابغة .

ولسنا نقول هذا بعد أن طوته السنون ، فقد قاله معاصروه من الأدباء والكتاب ، فعرفوا له مكانته ، وقدروا له عبقريته ، وذهلوا لنبوغه وبيانه وكتابته وبحوثه . فقال فيه صاحب « المنار » ، وهو يقرظ طبائع الاستبداد حين صدوره : « حملتْ به فكرة عالم عامل ومحنك عاقل ، حلب الدهر شطريه وعرف ما له وما عليه ، ولما تمّ حمله وأراد الله أن يظهر فى الوجود فضله وضعته تلك الفكرة الوقادة والقريحة النقادة فى أرض الحرية من هذه البلاد المصرية »[1] وقال وهو يقرّظ « أم القرى » : « هو كتاب لم يكتب مثله فى الإصلاح الإسلامى فقد جمعت فيه آراء المصلحين بقلم حكيم من حكمائهم وعالم اجتماعى من أفضل علمائهم »[2] . وقال فيه وهو يرثيه : « أُصيب الشرق بفقد رجل عظيم من رجال الإصلاح الإسلامى ، وعالم من علماء العمران وحكيم من حكماء الاجتماع

(١) رشيد رضا ، « مجلة المنار » ، ١٩٠١ ، ٣/١٠٥ .
(٢) رشيد رضا ، « مجلة المنار » ، ١٩٠٢ ، ٤/٩٥٩ .

البشرى »[١] ثم قال فيه : « كريم الأصل كبير العقل ، تربى أحسن تربية ، وتعلم أحسن تعليم ودخل فى الأعمال المختلفة وتصدّى للمشروعات المتعددة ، وكتب فى أدقّ المسائل أحسن الكتابة ، وساح فى البلاد ، واختبر أحوال الأمم حتى بلغ أشدّه واستوى »[٢] . ثمّ قال فيه : « أرأيتَ عقلاً يتصرّف هذا التصرف الذى يفوق فيه الحكماء والفلاسفة فى علم لم يأخذه بالتلقى ، وهو أصعب العلوم البشرية وأعلاها كيف يكون أثره لو تربى وتعلم فى مدارس منتظمة كمدارس أوربة الجامعة »[٣] . وقالت « مجلة الهلال » فيه : « وكان واسع الاطلاع فى تاريخ المشرق على العموم وتاريخ الممالك العثمانية على الخصوص وله ولع فى علم العمران »[٤] . وقال الأستاذ الرئيس محمد كرد على فيه : « فالفقيد يعدّ من كبار رجال النهضة الحديثة فى هذه الدّيار »[٥] . وقال فيه الأستاذ إبراهيم سليم النجار : « فأعاد إلى الأذهان صوت فيلسوف المعرّة منذ تسعمئة سنة وقد خرج الصوتان فى حلب الشهباء فذهبا صُعداً فى الأفق وتركا دويًّا فى جميع هذه الأجاء »[٦] . وكتب الأستاذ أحمد أمين يوازن بين الكواكبى والأفغانى فقال : « كانت معالجة الأفغانى للمسائل معالجة ثائر ، تخرج من فمه الأقوال ناراً حامية ومعالجة الكواكبى معالجة طبيب يفحص المرض وفى هدوء ، ويكتب الدواء فى أناة ، الأفغانى غاضب والكواكبى مشفق ، الأفغانى داع إلى السيف ، والكواكبى داع إلى المدرسة »[٧] .

وهكذا وضع الكواكبى مع المعرى وابن خلدون ومحمد عبده وجمال الدين الأفغانى فى قرَن[٨] واحد ، فكان علماً من الأعلام ، وزعيماً فى زعماء الإسلام ، وكاتباً مفكراً عالماً اجتماعيًّا فى الطليعة من كتابنا ومفكرينا .

---

(١) رشيد رضا ، « مجلة المنار » ، ١٩٠٢ ، ٥/٢٣٧ .
(٢) المصدر نفسه ٥/٢٨٠ . (٣) المصدر نفسه ٥/٢٤٠ .
(٤) « الهلال » ١٩٠٢ ، ٢٩/٥٩٦ . (٥) مجلة « المقتطف » ١٩٠٢ ، ٢٧/٦٢٤
(٦) مجلة « الحديث » ١٩٤٠ ، ١٤/٥ .
(٧) « زعماء الإصلاح » ، ص ٢٧٨ . (٨) القرن : المقرون بآخر.